خرائب مدينة تبي

كان اسم تبي يطلق في القرون الخالية على مدينة انشأها الرومان في سفح جبل يزوف (في ايطاليا اليوم) مدينة توفرت فيها دواعي الهناء فاحبها عظماء البلاد واصحاب الوظائف العليا فكانت مباءتهم في تلك الجنة . شادوا قصوراً يختلفون اليها في الاحايين ليسرّوا عن انفسهم الهموم ويجددوا ما فقدوا من قواهم في مشاغل السياسة .

ومما كان يزيد جمال تلك المدينة انهم كانوا يزينون جدران بيوتها ومنازلها بانواع النقوش الملوّنة بالالوان السبعة المعروفة وفي آخر كل من الشوارع كان نبع يجلس بجانبه المرء وامامه الحدائق الغناء يشرف على بحر الروم وتتجلى له المناظر البديعة فيخال انه في جنان السماء ويتمنى لو يبقى هناك ابد الدهر . الى هنالك كان الناس ينقاطرون فرادى وازواجاً فيفرج المكروب كربته ويتناسى المنكوب نكبته ويزيد عدد المتنزهين يوم تروق السماء فيجتمعون على تباين المشرب وقد تحلى بعضهم بالملابس الارجوانية وجلس الآخر على مقاعد الرخام يستظلون بالمظال وامامهم الموائد الفاخرة وقد وضعوا عليها الخمور والثمار وزينوها بالزهور والانوار فكان البيت في تلك المدينة يبدو كقصر صغير والقصر لا يقل في فخامته عن قصور هذا الزمان او هيا كل اسلافنا الاولين .

كانت مساكن عظماء الرومان في تبي مثال الرونق والجمال ونموذج الابهة والكمال يفد على احد تلك القصور زائر فيجتاز المدخل المزين بالنعمد الكثيرة ثم يأتي الردهة العظمى التي كان صاحب المنزل يستقبل الضيوف فيها بالحفاوة والاكرام ويصغي الى شكاوي المظلومين ويسمع مصانعات المنافقين وفيها كان يودع ماله يضعه في صناديق الحديد ويكل امره الى رب المنزل . ثم يفضي المتفرج الى غرفة اخرى قد دقت ارضها بالفسيفساء وزخرفت حيطانها بالنقوش وانواع الصور ورصعت بالفصوص الذهبية والياقوت وسائر انواع المعادن الثمينة وفيها كانوا يحفظون سجلات الأسر واخبارها لاول امرهم وكان في المنزل غرف متعددة مهيأة لتناول الغذاء وحجر للنوم مزوّقة مزخرفة وغرف اخرى تجمع فيها العاديات والاحجار الكريمة .

ثم ينتهي المتفرج الى غرفة واسعة اعدت لمحاكمة المذنبين وهذه تفضل سائر الغرف لانها كانت تطل على حديقة وفيها جميع انواع المهجات فمن ثم يفتن النواظر بالوانه المتفاوتة ومن بنابيع تنبعث مياهها الى كل صوب وتلطف الهواء ينشأ عنها اصوات تشنف الآذان ومن اوان خزفية زرعت فيها زهور نادرة الوجود والى جانب هذه وضع بعض انصاب الرجال العظماء

وكانت النقوش على حوائط القصر تمثل بعض المشاهد في اساطير اليونان كالاستيلاء على اوروبا ووقعة لاماز ون وكثير من هذه المناظر لا يزال محفوظاً في متحف نابولي المشهور. وصوّروا على باب القصر صورة كلب وكتبوا في اسفلها احترز من الكلب اشارة الى أُسطورة من أساطيرهم . وكانت تلف عمد الحكمة باكاليل صنعت من الزهور تبدل كل صباح. والموائد كان بعمل اكثرها من شجر الليمون الحامض وتزين بالنقوش العربية وكانوا يهتمون جدًّا بالاسرَّة فيصنعونها من النحاس والذهب والجوهر و يضعون فيها المساند الكثيفة و يزوّقونها بشغل الابرة الذي لم يفقهم فيه احد .

وكان صاحب القصر اذا أدب مأدبة لاهل الوجاهة والمكانة لا يألو جهده في تجهيز كل ما من شأنه ابهاج الزائرين فيجلس الضيوف على مقاعد الردهة متكئين على المساند ثم يضلون ايديهم في الاواني الفضية و ينشفونها بالمناشف الملوّنة بصباغ الارجوان ثم يتناولون الاطعمة و يأكلون الفواكه الموضوعة في اوعية ذهبية . وكانوا يأتون في اشد ايام الحر بالثلج و يستعملونه على الاخونة لتبريد الماء وانعاش الجسم .

وكان من يديرون كؤوس الخمر على الحضور في خلال المأدبة يقدمون لهم من افخر خمور الدنيا وفريق آخر من الخدم يرقصون لاطراب الزائرين واصحاب الغناء يوقعون الالحان و يغنون شيئًا من اغاني هورس او انقريون واذا انتهت الوليمة تنبعث المياه العطرة بغتة من قساطل لا ترى فتؤرج كل ما تحويه الردهة وتنتعش نفوس الجماعة ثم تبرز موائد اخرى وقد فرشت عليها صنوف الطعام فتعيد قابلية الضيوف و يأكلون ما لذ لهم اكله ثم تختفي هذه الموائد وتبرز بدلاً منها موائد اخرى يلعب عليها بعض اعضاء مجلس الاعيان والقناصل والحكام بالنرد فيخسرون الممالك او المقاطعات بهذه اللعبة او يربحون . هذا الفساد طرأ على أمة الرومان في ابتداء هبوطها . و يعقب هذه المشاهد مشهد الرقص يقوم به زمرة من الفتيات يدهشن الناظرين بما يأتينه من التفنن في ضروب الرقص الغريب و يغنين من الاغاني ما يسبي القلوب و يلعب بالعواطف والنفوس .

هكذا كانت احوال بمبي في اواخر القرن الاول بعد الميلاد يؤمها المتنزهون من اطراف البلاد و يفضلونها على منازه الدنيا . طرأت عليها نازلة جائحة في الثالث والعشرين من شهر اغسطس عام تسعة وسبعين والناس فيها منغمسون في الملاهي دهمتهم طوارق الحدثان وثار بركان يزوف في ظهيرة ذلك النهار وطفق يقذف الرماد والحم من جوف الارض و يدفعها الى المدينة فطبق الدخان كل ناحية . دخان كثيف اسود كالقار احال صفاء المكان ظلمة مدلهمة فعقبه انين وعويل وشتائم المتكوبين بعضهم بعضًا في ساعة اضاع فيها الاخ

اخته والعروس عروسه والزوج زوجته والام ولدها في آن تعذر على الانام ان ينظروا من الموجودات سوى لمعان كان يلمع من قمة البركان .

فمادت الارض بسكانها وتزعزعت القصور من اركانها وبدأت المنازل تهدم واصحابها يستجيرون ولا مجير فيرحم والبحر يتراجع عن اليابسة كأنه ارتعد فرقاً من ثوران بركان يزوف وثيجانه وكثف الهواء بما انقذف اليه من الغبار ثم تراكمت كل هذه المقذوفات وحملت الى المدينة فطمرتها ابد الدهر ومحتها من هذا الوجود .

ادرك اهلها الموت وهم منغمسون في لذائذ الحياة فهلك الضيوف في ردهات القصور وربات الحجال في الخدور والجند في ثكنهم والسجناء في محابسهم ومطابقهم والارقاء بقرب الينابيع حيث كانوا يتنزهون واصحاب التجارة وهم يبيعون السلع في مخازنهم وطلبة العلم وهم بين المحابر والدفاتر وحاول بعضهم الهرب فقادهم العميان الذين تعودوا السير في حالك الظلمات فبغتهم البوار وانقلب الناس من المدن المجاورة الى تبي بعد تلك النازلة ببضعة ايام فلم يلقوا هنالك سوى بقعة مغطاة بالرماد وفي الاعماق طمر ألوف من البشر ورقدوا رقاداً لم يعقبه قيام . طمروا فطمرت معهم لذائذهم وعفت من بعدهم آثار مدينتهم وتقوضت معالمها

وقد تسنى لها في القرن الثامن عشر اشخاص تحضوا ادراسة الآثار فطفقوا ينقبون في تلك البقعة وبعد ان تكبدوا المشاق وجدوا المدينة في الحالة التي طمرت بها فبعض المنازل لم يزل ثابتاً وبعض النقوش لا تزال ظاهرة وهياكل الموتى موجودة في الاماكن التي ادرك الموت اصحابها فيها منذ عهد سحيق فالسجين لم يزل مغلولاً بالاغلال والعروس لابسة سلاسل الذهب والاساور والشهيم قابضاً على درهمه والكهنة مختبئين في اجواف تماثيل اربابهم المجوفة ليخدعوا اتباعهم الى آخر ماهنالك من المناظر المدهشة والمشاهد المذهلة

هذه آثار دولة الرومان التي خفق نسرها في كل جو وعقدت رايتها في كل ارض فكأنك في درسك آثار تبي تستطلع اخبار الرومان ايام كانوا في اعلى ذرى رقيهم وسيطرتهم وتتجلى لك مظاهر حضارتهم منذ ظهورهم مضافة اليها مظاهر التمدن اليوناني التي نقلها الرومان عن اليونان والمظاهر التي اقتبسها هؤلاء عن أمم المشرق التي كان لها في القدم الكعب الاعلى في العمران وقد انقرضت كأنها لم تكن تلك سنة الكون تغير دائم تصدق على جميع العوالم ولا تزال تفعل في هذه الموجودات حتى ترجع بها الى العدم كما كان الحال في غابر الازمان .

يافا خليل الخوري